

من القيم الدلالية لفواصل القرآن الكريم

Denotations (Semantic Values) of Break in the Holy Quran

نائل إسماعيل

Nael Ismail

وكالة الغوث، غزة، فلسطين

بريد إلكتروني: dr.nael1968@yahoo.com

تاريخ التسليم: (٢٠١١/١٢/١)، تاريخ القبول: (٢٠١٢/٥/٢٨)

ملخص

الفواصل مصطلح لمقاطع الكلام المشابهة للسجع والقوافي، يشمل فيما يشمل فواصل القرآن الكريم، وإن لم يكن يعنيتها بالذات. وقد يُطلق بعضهم مصطلح السجع على الفاصلة نفسها، كما يُطلق على المعنى المصدري وهو توافق الفاصلتين في الحرف الأخير. وقد اختلفت في نسبة هذا المصطلح إلى القرآن الكريم، فذهب فريق إلى أن هذا الأسلوب فواصل، ونفوا عن القرآن الكريم السجع لرغبتهم في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروي عن الكهنة وغيرهم. ولكن الأمر لا يتعلق بالاسم أو المصطلح الذي نطلقه على هذه الظاهرة، بل بمدى مراعاتها للقيمتين الدلالية والصوتية معاً، فالتناسب الذي نحن بصدده هو اختيار المواد اللفظية من جهة ما يحسن في ملافظ حروفها وانتظامها وصيغها ومقاديرها لتؤدي المعنى المراد دون تكلف أو تصنع، مع تحقق الانسجام الصوتي والإيقاع النغمي. وهذا ما يميز فواصل القرآن الكريم. وقد قام الباحث بتتبع ظاهرة تناسب الفواصل في سور القرآن الكريم، موظفاً المنهج الوصفي التحليلي في عرض النماذج القرآنية وتحليلها، وإبراز قيمها الدلالية والجمالية الفريدة التي يتميز بها التركيب القرآني.

Abstract

Break is a concept similar to assonance and rhyme belonging to verses. Breaks are included in the holy Quran but not confined to it. Assonance is also another concept sometimes used for break. However, there is no agreement on relating the concept of break to the holy Quran where a group of scholars prefer the concept 'break' denying the concept 'assonance' in the holy Quran. This is in order to refrain the holy Quran

from concepts related to speech narrated by priests. The matter here is not solely related to the concept but concerned with attributing such a phenomenon to both phonetic and semantic values. Such inclusion refers to the choice of verbal forms which ameliorates pronouncing their letters, their regularity, forms and quality in order to convey the intended meaning without affectation. This should achieve phonetic harmony and tonal rhythm which distinguish breaks of the holy Quran. The researcher investigated the phenomenon of breaks in the different Suras of the holy Quran adopting the descriptive analytical method. First, he presented Quranic patterns, analyzed them and then presented their significant denotations and aesthetic values which distinguish Quranic constructions from others.

مقدمة

تجدر الإشارة بين يدي هذه الدراسة أنّ بحث الفاصلة واكْبَ العلوم الإسلامية والعربية منذ نشأتها الأولى - لا سيّما علم البلاغة- قبل أن تنبثق الفروع وتستقرّ المصطلحات، غير أنّه يصعب تحصيل اليقين في أول من سمّى الفاصلة، وعلى الرغم من ذلك فإنّه بوسعنا أن نلاحظ تقلّب المصطلح لدى أعلام العربية الأوائل، فمثلاً يقول الخليل بن أحمد الفراهيدي في مادة سجع: "سجع الرجل: إذا نطق بكلام له فواصل كقوافي الشعر من غير وزن، كما قيل: لصّها بطلّ وتمرها دقل، إن كثّر الجيشُ بها جاعوا، وإن قلوا ضاعوا"^(١).

وظاهر النصّ يفيد أن كلمة (فواصل) هنا مصطلح لمقاطع الكلام المشابهة للسجع والقوافي، يشمل فيما يشمل فواصل القرآن الكريم، وإن لم يكن يعنيه بالذات. ويؤكد ذلك استخدام سيبويه - وهو تلميذ الخليل- لهذا المصطلح. يقول سيبويه في (باب ما يحذف من أواخر الأسماء في الوقف وهي الياءات): "وجميع ما لا يُحذف في الكلام وما يختار فيه ألا يحذف، يحذف في الفواصل والقوافي. فالفواصل قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ﴾^(٢)، و﴿مَا كُنَّا نَبْعُ﴾^(٣)، و

﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾^(٤)، و﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾^(٥).

(١) الفراهيدي، الخليل بن أحمد: العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار الهلال، ٢٠١٤/١.

(٢) الفجر: ٤.

(٣) الكهف: ٦٤.

(٤) غافر: ٣٢.

(٥) الرعد: ٩.

والأسماء أجدر أن تُحذف إذا كان الحذف فيها في غير الفواصل والقوافي^(١).

ويعرّف الدانيّ الفاصلة بقوله: "أما الفاصلة فهي الكلام المنفصل عما بعده، والكلام المنفصل قد يكون رأس آية وغير رأس، وكذلك الفواصل يكنّ رؤوس أي وغيرها، وكلّ رأس آية فاصلة، وليس كلّ فاصلة رأس آية، ولأجل كون معنى الفاصلة هذا ذكر سيبويه في تمثيل القوافي ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾^(٢) و﴿مَا كُنَّا نَبْعُ﴾^(٣) - وهما غير رأس آيتين بإجماع - مع ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِر﴾^(٤)، وهو رأس آية باتفاق^(٥).

تفيد النصوص السابقة أنّ مصطلح الفاصلة لم يستقرّ نهائياً، حتّى إذا جاء الفراء استخدم عدداً من المصطلحات للدلالة على نهايات الآيات حتّى ظنّ أنّه لم يعرف مصطلح الفاصلة بل مصطلح رؤوس الآيات، وهذا خلاف الحقيقة، والصواب أن الفراء عرض في كتابه (معاني القرآن) للفاصلة من خلال الإشارة إليها بالمصطلحات التالية: رؤوس الآيات، وفصول، وآخر الآية، وآخر الحروف، وأواخر الحروف^(٦). فالفراء لم يقتصر على مصطلح (رؤوس الآيات)، ولم يجهل مصطلح (الفاصلة) الذي تضمّنه القول بـ(الفصول).

وقد يُطلق بعضهم مصطلح السجع على الفاصلة نفسها، كما يطلق على المعنى المصدريّ وهو توافق الفاصلتين في الحرف الأخير. وقد اختلفت في نسبة هذا المصطلح إلى القرآن الكريم، فذهب فريق إلى أن هذا الأسلوب فواصل ونفوا عن القرآن الكريم السجع، وفي طليعة هؤلاء الباقلائيّ الذي ينفي وقوع السجع في القرآن بقوله: "لو كان الذي في القرآن على ما تقدّرونه سجعاً لكان مذموماً مردولاً؛ لأن السجع إذا تفاوتت أوزانه واختلفت طرقه كان من قبيح الكلام، وللسجع منهج مرتّب محفوظ وطريق مضبوط متى أخلّ به المتكلّم وقع الخلل في كلامه ونُسب إلى الخروج عن الفصاحة، كما أن الشاعر إذا خرج عن الوزن المعهود كان مخطئاً، وكان شعره مردولاً"^(٧).

فالباقلائي يرفض وجود السجع في القرآن جملة كما هو موجود في كلام فصحاء العرب؛ لأنه خرج في كتاب الله عن النظام الذي وُضع له، ولو كان سجعاً ما عجز العرب عن أن يأتوا

(١) سيبويه: الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٨٨: ١٨٤/٤ و١٨٥.

(٢) هود: ١٠٥.

(٣) الكهف: ٦٤.

(٤) الفجر: ٤.

(٥) الداني، أبو عمرو: البيان في عدّ أي القرآن، تحقيق: غانم قدوري الحمد، مركز المخطوطات والتراث - الكويت، ط، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، ١/٢٦.

(٦) انظر الفراء، أبو زكريّا: معاني القرآن، تحقيق: محمد علي النجار وآخرون، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ط، ٢٠٠١، ٢/١٧٦.

(٧) الباقلائي، أبو بكر: إعجاز القرآن، تحقيق: أبو بكر عبد الرازق، مكتبة مصر، ١٩٩٤، ص ٥١ و ٥٢.

بمثله، "فالسجع ممّا كان يألّفه الكهّان من العرب، ونفيه عن القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفي الشعر؛ لأن الكهانة تنافي النبوات، وليس كذلك الشعر"^(١).

وذهب الرّماني -أيضاً- إلى امتناع أن يُقال: في القرآن سجع، وفرّق بأنّ السجع هو الذي يُقصدُ في نفسه ثم يُحال المعنى عليه، أمّا الفواصل فتتبع المعاني ولا تكون مقصودة في نفسها، قال: "ولذلك كانت الفواصل بلاغةً والسجع عيباً"^(٢).

وذهب فريق آخر إلى أن هذا الأسلوب مسجوع، ولم يروا جناحاً في إطلاق السجع على كثير من سور القرآن الكريم وآياته محتجّين بكون السجع من الأفانين التي بها التفاضل في البيان، فهو كالجناس والالتفات وما شاكلها، وقد جاء في القرآن الكريم كما جاءت. يقول ابن النفيس: "يكفي في حسن السجع ورود القرآن به، ويقول: لا يقدح في ذلك خلوه في بعض الآيات؛ لأنّ الحسن قد يقتضي المقام الانتقال إلى أحسن منه"^(٣).

ويحتجّون -أيضاً- بما جاء في بعض الآيات من تقديم (هَارُونَ) على (مُوسَى)، مع أن موسى أفضل منزلةً وأعلى قدرًا من أخيه هارون، وكان الأصل أن يُقدّم موسى، ولكن من أجل مراعاة السجع -حسب رأيهم- قُدّم هارون، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا

قَالُوا ءَإِمْنَا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾^(٤)؛ لأنّ الفواصل في هذه السورة مبنية على الألف.

وذهب الخفاجي إلى أنه لا فرق بين السجع والفواصل، وخطأ من قال: إن السجع عيبٌ والفواصل بلاغة، فإن أراد بالسجع ما يتبع المعنى وهو مقصود فذلك بلاغة والفواصل مثله، وإن أراد به ما تقع المعاني تابعة له وهو مقصود متكلف فذلك عيب، والفواصل مثله. أمّا تسميتهم كل ما في القرآن فواصل لا سجعاً فلرغبتهم في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروي عن الكهنة وغيرهم^(٥).

ونقول في هذا المقام: إنّ الأمر لا يتعلّق بالاسم أو المصطلح الذي نطلقه على هذه الظاهرة، بل بمدى مراعاتها للقيمتين الدلالية والصوتية معاً، فالتناسب -إذن- هو اختيار المواد اللفظية من

(١) المصدر السابق، ص ٥١ و ٥٢.

(٢) السيوطي، جلال الدين: معترك الأقران في إعجاز القرآن، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط ١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، ٢٥/١.

(٣) السيوطي، جلال الدين: الإتيان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٣/٣٠٥.

(٤) طه: ٧٠.

(٥) الخفاجي، ابن سنان: سرُّ الفصاحة، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م، ص ١٧٣.

جهة ما يحسن في ملافظ حروفها وانتظامها وصيغها ومقاديرها لتؤدّي المعنى المراد دون تكلفٍ أو تصنع، مع تحقّق الانسجام الصوتي والإيقاع النغمي، وهذا ما يميز فواصل القرآن الكريم.

إنّ من خصائص فواصل القرآن الكريم أن لكلّ من القرينتين أو الفقرتين المسجوعتين معنًى يغيّر معنى الأخرى، على حين أنّ أسجاع الكتاب والبلغاء كثيراً ما تقوم على تأدية الفقرتين لمعنى واحد، وهذا نوع من التطويل لا أثر له في كتاب الله، اقرأ قوله تعالى: (وَالشَّمْسُ

وَضُحًى، وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا، وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا، وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا، وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا، وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَّاهَا، وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) ^(١)، أو أية سورة أخرى في كتاب الله، تجد هذه القاعدة مطّردة لا تختلف.

ولما قامت الدراسات البيانية ونضجت، لم يتفق علماء البيان مع ما يقول به النحويون فيما يتصل بلغة الشعر والنثر الفني؛ لأن علماء اللغة والنحو إنما ينظرون إلى الشعر ينشدون فيه غريبه أو إعرابه، وإنما ينشد البيانيون فيه أشياء وراء الغريب والإعراب، وهي جمال التعبير وحسن وقعه في النفس.

إنّ نظرة علماء البيان إلى لغة الشعر والنثر الفني لا تقوم على سلامة اللفظ أو صحّة التركيب الظاهريّ فحسب، بل يعتبرون جمال الإيقاع وحسن الأداء وبلوغ المراد بصورة أتمّ وأجمل وألذّ. يقول ابن الأثير: "ونحن في استعمال ما نستعمله من الألفاظ واقفون مع الحسن لا مع الجواز، وهذا يرجع إلى حاكم الذوق السليم؛ فإنّ صاحب هذه الصناعة يصرف الألفاظ بضروب التصريف، فما عذب في فمه منها استعماله وما لفظه فمه تركه" ^(٢).

ولكن هذا التصرف الذي يشير إليه ابن الأثير ينبغي أن يُحدّد أو يقيّد بأصول اللغة والعرف السائد. وقالوا بصفة عامّة: إنّ كل ما استعمل من ألفاظ اللغة في المنثور يجوز استعماله في المنظوم، ولا يصحّ العكس، أي أن لغة الشعر أخصّ ^(٣).

(١) الشمس: ١-١٠.

(٢) ابن الأثير، ضياء الدين: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٠هـ، ٢٨٧/١.

(٣) انظر سلام، محمد زغلول: لغة الشعر وكتاب "ما يجوز للشاعر في الضرورة"، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الجزء السابع والعشرون، فبراير، ١٩٧١، ص ١٩٥.

الدراسات السابقة

اهتمت كثير من الدراسات السابقة بإبراز الخلاف بين العلماء حول مسألة وقوع السجع أو عدم وقوعه في القرآن الكريم، وإثبات الفرق بين السجع في كلام الفصحاء وفواصل القرآن الكريم، من هذه الدراسات:

١. دراسة أحمد الحوفي: (سجع أم فواصل) المنشورة في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الجزء السابع والعشرون، ١٩٧١.
 ٢. دراسة عبد الرحمن تاج: (السجع وتناسب الفواصل وما يكون من ذلك في القرآن الكريم) المنشورة في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الجزء السادس والثلاثون، ١٩٧٥.
 ٣. دراسة رمضان حينوني: (آراء حول إشكالية السجع والإيقاع في القرآن الكريم)، منشورات المركز الجامعي بتمنراست-الجزائر، ٢٠٠٩.
- واهتمت دراسات أخرى بإبراز القيم الصوتية والإيقاعية لفواصل القرآن الكريم، من هذه الدراسات:

١. دراسة عمر عبد الهادي عتيق: إيقاع التجانس اللفظي في فواصل القرآن الكريم، منشورات مجالس الطريق إلى الجنة، ٢٠٠٩: way2jannah.com.
 ٢. دراسة محمد رمضان البع: دلالة الأصوات في فواصل آيات جزء عم، دراسة تحليلية، المنشورة في مجلة جامعة الأقصى، (سلسلة العلوم الإنسانية)، المجلد الثالث عشر، ٢٠٠٩.
 ٣. دراسة محمد قطب عبد العال: الأداء التصويري وإيقاع الفواصل في القرآن الكريم، المنشورة في مجلة الداعي الشهرية الصادرة عن دار العلوم ديوبند، الهند، العدد الثاني عشر، ٢٠٠٩م: darululoom-.deoband.c.
- أما دراستي هذه فتهتم باستنباط القيم الدلالية (التركيبية والصوتية) لفواصل القرآن الكريم وتحليلها، في ضوء بعض الظواهر اللغوية الشائعة في القرآن الكريم، مثل: التقديم والتأخير، والاختصار والحذف، والزيادة والإطالة، والتكرار، وتفضيل صيغة على أخرى، والانسجام الصوتي، باستخدام المنهج الوصفي التحليلي.

أولاً: التقديم والتأخير

أي التقديم والتأخير في بعض كلمات الجملة من غير أن يُزادَ عليها شيء، فيتحقق التناسق المطلوب، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَنْ رَّبُّكُمَْا يَمُْوسَىٰ ﴾^(١). فإنه يمكن -لأداء أصل

(١) طه: ٤٩.

المعنى- أن يُقال: (قال يا موسى فمن ربكما)، كما قيل في آية أخرى: (قَالَ يَمُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ)^(١). لكن المولى -عز وجل- اختارَ النظم الذي جاءت عليه الآية -مع تساوي النظمين في أداء أصل المعنى- لأنه هو الذي يتّم به المعنى المراد وبه يكون تناسب الفواصل المطلوب في ذلك المقام، ولأنّ موسى هو الرّسول الحقيقيّ الذي إليه البشارة والإنذار، ثمّ جاء التناسب تبعاً لهذا المعنى وليس سابقاً له^(٢). ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾^(٣). فإنّ هذا المعنى يُمكن أن يُؤدّى بأن يُقال: (فألهمها تقواها وفجورها)؛ لكنه رُجِحَ النظم الذي جاءت عليه الآية؛ لأنّ التقوى بعد الفجور أصلح للإنسان في دنياه وآخرته، لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتَ يُذْهِبَنَّ السَّيِّئَاتِ﴾^(٤)؛ ولأنّ هذا الترتيب هو الذي يتحقّق به المقصود من التناسب، وذلك رعايةً لفواصل السورة^(٥) ﴿ضُحًى، تَلْهَى، جَلَّهَا، يَغْشَى﴾^(٦).

ومن ذلك -أيضاً- قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾^(٧)، وذلك أنّ الرسالة أخصّ من النبوة، والمعهود في الكلام المرسل الذي يجمع فيه بين عامٍّ وخاصٍّ أنّ يُقدّم العامّ على الخاصّ، ولكنّه قدّم في هاتين الآيتين الخاصّ على العامّ مراعاةً للفواصل مع اتّحاد المعنى^(٨)؛ لأنّ السورة بُنيت على فاصلة الباء المشدّدة والألف: ﴿مَرْضِيًّا، نَبِيًّا، عَلِيًّا، بُكِيًّا﴾^(٩).

(١) القصص: ١٩.

(٢) انظر الزركشي، بدر الدين: البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م، دار إحياء الكتب العربية، ٣/٣٣٥.

(٣) الشمس: ٨٧.

(٤) هود: ١١٤.

(٥) انظر الألوسي، شهاب الدين: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ، ١٥/٣٦٠.

(٦) الشمس: ١-٤.

(٧) مريم: ٥٤.

(٨) انظر الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ٣/٤٠٤.

(٩) مريم: ٥٤-٥٨.

وكثيراً ما ترافق الفواصل أغراضٌ بلاغية أصيلة تتجلى من نسق الآية، أو من إثارة لفظ على لفظ، ففي قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الْمُنْذِرُ، ثُمَّ فَأَنْذِرْ، وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ، وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ، وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ، وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾^(١)، قُدِّمَت المفعولات (رَبِّكَ)، و(ثِيَابَكَ)، و(الرُّجْزَ) على الأفعال (كَبِّرْ)، و(طَهِّرْ)، و(أَهْجُرْ) للقصر البلاغي من ناحية، ولتحقيق موسيقى الفواصل من ناحية أخرى، وقُدِّمَ الجار والمجرور (لِرَبِّكَ) على الفعل (فَاصْبِرْ) للغرض نفسه. قال صاحب البحر المحيط: "وتقديم المفعول على الفعل يدل على الاختصاص، ودخلت الفاء لمعنى الشرط، كأنه قيل: وما كان فلا تدع تكبيره"^(٢).

ومن تقديم المفعول به قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ، ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ، ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾^(٣)، فتقديم المفعول في (ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ) يدل على الحصر، أي: لا تُصَلُّوه إلا الجحيم، وهي النار العظمى، لأنه كان سلطاناً يتعظم على الناس^(٤)، وتقديم (سِلْسِلَةٍ) للدلالة على الاختصاص كتقديم الجحيم^(٥)، وقد أسهم التقديم -بالإضافة إلى دلالاته على الحصر والاختصاص- في تحقيق التناسب اللطيف بين فواصل الآيات.

ومثاله -أيضاً- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ءَاتَتْهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ، أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ

(١) المدثر: ١-٧.

(٢) الأندلسي، أبو حيان: البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ط ١٤٢٠هـ، ٣٢٥/١٠.

(٣) الحاقة: ٣٠-٣٢.

(٤) انظر الأندلسي: البحر المحيط في التفسير، ٢٦١/١٠.

(٥) انظر الشوكاني، محمد بن علي: فتح القدير، المكتبة العصرية، بيروت، ط ١، ١٩٩٧، ٣٤٠/٥.

هُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ^(١). ففي قوله تعالى: (وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ) عدلت الآية عن الأصل، وهو (وَلَا يَنْصُرُونَ أَنْفُسَهُمْ) إلى التقديم والتأخير، طلبًا للقصر والتوكيد، ومراعاة للتناسب بين فواصل الآيات.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ، قَالَ بَلْ أَلْقُوا^٢ فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ تُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُمْ تَسْعَىٰ، فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ، قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ، وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا^٣ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ^(٢)﴾، فُدم الضمير، وهو الهاء في كلمة (نَفْسِهِ) لسبب معنوي، وهو الدلالة على أن خوف موسى كان يجيش في نفسه ولكنه خفي على السحرة، وهذا التقديم أدق من التأخير، ولسبب لفظي هو أن الفاصلة ألف مقصورة ناسبها أن تجيء كلمة (مُوسَى) في آخر الآية^(٣).

ثانيًا: الاختصار والحذف

ويكون بالاختصار في الجملة بحذف جزء معلوم حق العلم من المقام، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ^(٤) ثُمَّ هَدَىٰ﴾. فإنه إذا كان الأصل عدم حذف ضمير المفعول، وأن يُقال: (رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَاهُ)؛ فإنَّ المعنى لا يختلف عمَّا جاءت عليه الآية^(٥)، ثم يُرجَّح نظمها بأنه هو الذي يتحقَّق به التناسب المطلوب.

(١) الأعراف: ١٩٠-١٩١.

(٢) طه: ٦٥-٦٩.

(٣) انظر الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ٦٢/١.

(٤) طه: ٥٠.

(٥) انظر الأندلسي، أبو حيان: البحر المحيط في التفسير، ٥٥/٦.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ وَالضُّحَىٰ، وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ، وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ، أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَغَاوَىٰ، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ، وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ^(١) ۝ فَالتركيب قبل الحذف: (ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَاكَ، وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَاكَ). لكنّه أثر حذف المفعول تحقيقاً لتناسب الفواصل المطلوب مع تساوي الطريقتين: (الذكر والحذف) في الدلالة على المعنى المقصود. ومثال قوله تعالى: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ ^(٢) ۝ يقول الفراء: "وقد قرأ الفراء (يسري) بإثبات الياء، و(يسر) بحذفها، وحذفها أحب إليّ لمشاكلتها لرؤوس الآيات؛ ولأنّ العرب قد تحذف الياء وتكتفي بكسر ما قبلها منها" ^(٣).

وكذلك (طَغَوْنَهَا) في قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثُمُودُ بِطَغْوَيْهَا ^(٤) ۝ أراد: (بطغيانها)، إلا أنّ الطغوى أشكل برؤوس الآيات.

وفي قوله تعالى: ﴿ سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ، لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ، لَوَاحَةٌ لِّلْبَشَرِ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ^(٥) ۝ حذف مفعول الفعل (تَذَرُ) للدلالة على التعميم بأن (سَقَرٌ) لا تُبْقِي لهم لحماً ولا تذر لهم عظماً، أو لا تُبْقِيهم أحياء ولا تذرهم أمواتاً ^(٦) لتحقيق الفاصلة، وهي الراء.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ^(٧) ۝، فد(أَضْحَكَ وَأَبْكَى) لا مفعول لهما في هذا الموضع؛ "لأنّهما مسوقتان لقدرة الله لا لبيان المقدور، فلا حاجة إلى المفعول. يقول

(١) الضحى: ١-٨.

(٢) الفجر: ٤.

(٣) الفراء، أبو زكريا: معاني القرآن، ٢٦٠/٣.

(٤) الشمس: ١١.

(٥) المدثر: ٢٦-٣٠.

(٦) انظر الأنصاري، ابن زكريا: فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، تحقيق: محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، ط١، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، ٥٨٨/١.

(٧) النجم: ٤٣.

القائل: فلان بيده الأخذ والعطاء يعطي ويمنع ولا يريد ممنوعاً ومعطى"^(١). وقد جاء حرف الألف منسجماً مع خواتيم الآيات السابقة واللاحقة في السورة نفسها: ﴿أُخْرَى، سَعَى، يُرَى، الْأَوْفَى، الْمُتَنَبَّى، أَحْيَا، أَبْكَى، الْأُنْتَى﴾ مراعاةً لتناسب الفواصل.

ومثال الحذف -أيضاً- قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ، اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ، عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾^(٢). فقد حذفت الياء من (الْمُتَعَالِ) رعايةً للفاصلة المتحققة في المدّ والوقف في ﴿هَادٍ، وَتَزْدَادُ، بِمِقْدَارٍ، وَالْمُتَعَالِ﴾، ولثقل الياء المحذوفة^(٣).

ثالثاً: الزيادة والإطالة

وتكون الإطالة بزيادة حرفٍ أو حركة على الكلمة لتناسب فواصل الآيات، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيِّنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ، وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ﴾^(٤). فالألف في (الرَّسُولَا) و(السَّبِيلَا) هي الألف التي تقع في الفواصل، ويُسمِّيها النحاة ألف الإطلاق، وهي حرف يلحق القافية المطلقة فألحقت هذه الألف في الروي؛ لأن الشعر وضع للغناء والترنم^(٥)؛ إذ اعتاد

(١) الرازي، فخر الدين: التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ، ٢٧٩/٢٩.

(٢) الرعد: ٧-٩.

(٣) انظر الباقولي، أبو الحسن: إعراب القرآن المنسوب للزجاج، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري، ط٤، ١٤٢٠هـ، ٩٠٧/٣.

(٤) الأحزاب: ٦٦ و٦٧.

(٥) انظر سيبويه: الكتاب، ٢٩٩/٢.

الشعراء أن يترنموا في أواخر الأبيات قبل حرف الروي ليمتد بها الصوت ويقع فيه تطريب لا يتم إلا بمدّ الحرف، وأكثر ما يقع ذلك في الأواخر^(١).

والشيء نفسه يُقال في (قَوَارِيرًا) في قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِغَانِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ

وَأَكْوَافٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا، قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾^(٢). وقد اختلف في هذه

الألف، فقد أثبتتها أبو عمرو وصلأ ووقفأ، وحذفها حمزة في الوصل والوقف، وعدّها من زيادات الخطّ فتكتب كذلك ولا ينبغي النطق بها^(٣)، وقرأ ابن كثير والكسائي بإثباتها وقفأ وحذفها وصلأ^(٤). وقال الشوكاني: "وهذه القراءة راجحة باعتبار اللغة العربية^(٥)؛ ذلك أنّ فواعل وفواعيل لا تنصرفان، ووقفوا على الأولى بالألف لأنّها رأس آية وآيتها على الألف، ووقفوا على الثانية بغير ألف لأنّها ليست برأس آية"^(٦).

وقد تكون الزيادة والإطالة بإثبات بعض الأصوات، مثل هاء السكت في قوله تعالى:

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ، فَأَمَّا مَنْ أُوْقِ كِتَبَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ

هَآؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهٗ ، إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْقٍ حِسَابِيَهٗ ، فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ، فِي جَنَّةٍ

عَالِيَةٍ ، قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾^(٧)؛ إذ جاءت كلمة (كِتَابِيَهٗ) بدلاً من كتابي، وكلمة (حِسَابِيَهٗ) بدلاً

بدلاً من حسابي، والهاء "إنّما أتى بها للسكت لتبيين بها حركة ما قبلها"^(٨)، "وحق هذه الهاءات أن تثبت في الوقف وتسقط في الوصل، وقد استُحب إثارة الوقف إثارةً لثباتها في المصحف"^(٩)، المصحف^(٩)، وليس لذلك أثر في المعنى، بل مراعاة لفواصل الآيات عند الوقف عليها.

(١) انظر ابن جني، أبو الفتح: المنصف، دار إحياء التراث القديم، ط ١، ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م، ص ٢٢٤.

(٢) الإنسان: ١٦ و ١٥.

(٣) انظر البغدادي، أبو بكر: السبعة في القراءات، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط ٢، ١٤٠٠ هـ، ص ٦٦٤.

(٤) انظر الزمخشري، جار الله: الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣- ١٤٠٧ هـ، ٦٧١/١.

(٥) الشوكاني: فتح القدير، ٣٢٩/٤.

(٦) أبو زرعة، عبد الرحمن: حجة القراءات، تحقيق: سعيد الأفغاني، دار الرسالة، ص ٧٣٩.

(٧) الحاقة: ٢٣-١٨.

(٨) أبو زرعة: حجة القراءات، ص ٩٣.

(٩) الزمخشري: الكشف، ٦٠٣/٤.

وفي قوله تعالى: ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةٌ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ خُذُوهُ فُغْلُوهُ ﴾^(١)، قرأ ابن كثير ونافع وعاصم وأبو عمرو وابن عامر (مَالِيَّة) و(سُلْطَانِيَّة) بإثبات الهاء في الوصل^(٢)، فتكون قراءتها بالوصل هكذا: ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةٌ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ خُذُوهُ ﴾ فقد أدخلت الهاء لتبين بها حركة ما قبلها في الوقف؛ إذ المسكوت عليه ساكن، فكهوا أن يسكتوا على الياء فلا يُفَرِّقَ بينها -وهي متحركة في الوصل- وبينها وهي ساكنة في الوصل، فبيّنوا حركتها بهذه الهاء؛ لأن دخول الهاء أمانة إذا وصل القارئ الآية بالآية، وإنما يصلح إثبات الهاء في فواصل الآيات؛ لأنها مسكوتٌ عليها^(٣).

رابعاً: التكرار

من السمات الدلالية التي تلفت الانتباه أنَّ النصَّ القرآني يلجأ في بعض السياقات إلى تكرار كلمات أو أسماء بعينها لتوكيد معنى أو قيمة، وفي الوقت ذاته تحقيق التناسب بين فواصل الآيات فيتحقق بذلك الانسجام بين التركيب والدلالة، من ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ سُبْحَنَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا، وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ، قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾^(٤). فتكرار (رَسُولًا) في الموضعين الأولين يؤكد ارتباط هذه الصفة بالبشر؛ لأنَّ الرسول من جنسهم، ونفيها عن الملائكة في الموضع الثالث، وذلك ردًا على إنكار المنكرين الذين قالوا: (أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا)؛ لأنهم جهلوا أنَّ التجانس يُورث التأنس والتغاير يُورث التنافر^(٥)، "فأعلم الله أنَّ الأعدل الأبلغ أن يبعث إلى كل خلق من

(١) الحاقّة: ٢٨-٣٠.

(٢) انظر البغدادي: السبعة في القراءات، ص ١٨٨.

(٣) انظر أبو زرعة: حجة القراءات، ص ٧١٩.

(٤) الإسراء: ٩٣-٩٥.

(٥) الكرمانلي، برهان الدين: أسرار التكرار في القرآن، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الفضيلة للنشر، ص ١٦٦.

كان من جنسه"^(١). وقد جاءت (رُسُولًا) مكررة ومنصوبة، توكيداً لصفة البشرية في الرسول، ومراعاةً للفواصل.

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا، لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا، تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا، أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا، وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾^(٢)، كرر لفظ (الرَّحْمَن) تنبيهاً على أنه -سبحانه وتعالى- هو الرحمن وحده من قبل أن أصول النعم وفروعها ليست إلا منه، وكرر (وَلَدًا) في موضع المفعول ثلاث مرّات تأكيداً للمعنى السابق؛ فمن أضاف الولد إلى الرحمن فقد جعله كبعض خلقه وأخرجه بذلك عن استحقاق اسم الرحمن^(٣). ثم انظر كيف أسهمت الفواصل الثلاث (وَلَدًا) المتكررة -مع تنوين الفتح الشائع في هذه السورة- في إنتاج نغمة صوتية عذبة الإيقاع.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ، إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ، قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ، قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾^(٤)، أسقطت اللام من (مُرْسَلُونَ) وأثبتت في (لَمُرْسَلُونَ) الثانية؛ لأنّ الأول ابتداء إخبار والثاني جواب إنكار^(٥)، فأكدّ الجواب بالقسم الذي يفهم من قوله: (رَبُّنَا

(١) النحاس، أبو جعفر: معاني القرآن، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٩هـ، ١٩٦٤/٤.

(٢) مريم: ٨٨-٩٢.

(٣) انظر الزمخشري: الكشاف، ٤٥/٣.

(٤) يس: ١٣-١٦.

(٥) انظر الزمخشري: الكشاف، ٩/٤.

يَعْلَمُ)، و(إِنَّا)، واللام في (لَمُرْسَلُونَ)، واسمية الجملة^(١). فالردّ على المنكرين بتكرار (إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ) أقوى في المعنى والدلالة من الردّ بـ(إِنَّا لَصَادِقُونَ) المناسبة لقولهم: (إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ)، واختيار (تَكْذِبُونَ) على (كَاذِبُونَ) للدلالة على التجدد^(٢)، ولتحقيق التناسب الصوتي مع (مُرْسَلُونَ) المكررة.

وفي قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣)، يربط المولى -عز وجل- بين تكوين السماء والأرض وتكوين الإنسان ورزقه من الطيبات، ويعقب على هذه الآيات والهيئات بأن الذي يخلق ويُقدّر ويُدير هو الله ربكم (فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ). وأمام هذه الآيات والهيئات، وما تلاها من تعقبات، وفي أشدّ اللحظات امتلاءً بحقيقة الوحدة الألوهية والربوبية: (فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)، يجيء التلقين لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليعلم للقوم أنه منهى عن عبادة ما يدعون من دون الله مأمورًا بالإسلام لله رب العالمين (وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ). فهذه كلها أمور مرتبطة متناسقة، ومن ثمّ يذكرها القرآن في مكان واحد بهذا الترابط، ويتخذ منها برهانه على

(١) انظر الشوكاني: فتح القدير، ٤/١٨.

(٢) انظر الألوسي: روح المعاني، ١١/٣٩٤.

(٣) غافر: ٦٤-٦٦.

وحدانية الخالق، ويوجّه في ظلها القلب البشري إلى دعوة الله وحده مخلصا له الدين^(١)، وقد تكرّرت (رَبِّ الْعَالَمِينَ) ثلاث مرّات في تناسق لفظي ودلالي، ومن ثمّ جاءت الفواصل الثلاث معبرة عن المعنى نفسه، وهو التأكيد على حقيقة الخضوع والاستسلام لربّ العالمين، فكانت لفظه (الْعَالَمِينَ) أحقّ بالوضع في هذا المكان لتساوي الفواصل، ولينسجم في الوقت نفسه مع حقيقة الخضوع والاستسلام التي تبرزها الآيات^(٢).

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فَكَّرُوا وَقَدَّرُوا فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَرُوا ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَرُوا﴾^(٣)، تكرّر الفعل (قَدَرُوا) ثلاث مرّات للمبالغة والتوكيد، على طريق التعجب والإنكار والتوبيخ والتهكم^(٤)، "وتكرار (قُتِلَ كَيْفَ قَدَرُوا) للدلالة على أنّ الدعاء عليه في الكرّة الثانية أبلغ من الأولى"^(٥). كما أنّ فاصلة الآيات (الراء المكررة) -بما تحدثه من نغمة واضحة-^(٦) تنسجم مع معنى المبالغة والتوكيد الذي تعبّر عنه الآيات.

خامساً: تفضيل صيغة على أخرى

يكون بإثبات إحدى صيغتين للفظ مع تساوي الصيغتين في الدلالة على المعنى المراد، كما في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَكُرٍ، خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ تَخِرُّجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ، مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾^(٧). فإنّه كان يمكن أن يقال لأداء المعنى: (هذا يومٌ عسير) بدل (عسير)،

- (١) انظر قطب، سيّد: في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت/القاهرة، ط١٧، ١٤١٢هـ، ٣٠٩٥/٥.
- (٢) الإسكافي، الخطيب: درة التنزيل وغرة التأويل، تحقيق: محمد مصطفى آيدين، جامعة أم القرى، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، ٦٣٣/٢.
- (٣) المذنّ: ١٨ - ٢٠.
- (٤) انظر الثعلبي، أبو إسحق: الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م، ٧٣/١٠.
- (٥) الرازي، فخر الدين: التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣ - ١٤٢٠هـ، ٧٠٦/٢٠.
- (٦) انظر السعمران، محمود: علم اللغة مقدّمة للقارئ العربي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٧، ص١٤٣.
- (٧) القمر: ٦ - ٨.

وكلاهما صيغتان من صيغ الصفة المشبهة. وقد جاء كذلك في آياتٍ أخرى، مثل قوله تعالى: ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُيسِيرٍ﴾^(١)؛ إذ كان يتحقق التناسب هناك بين الفواصل بالصيغة الثانية (عَسِيرٍ)، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾^(٢)؛ لأن ذلك يتطلبه التناسب المقصود في السورة -أيضًا.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾^(٣)، فإنَّ (تَبْتِيلًا) وضعت موضع (تَبْتَلًا) مصدر (تَبَتَّلَ)، وقد أوثرت عليها؛ لأنَّ بها يتحقق تناسب الفواصل. والتبَتَّل: الانقطاع، يُقال: بتلت الشيء: أي قطعتَه وميَّزته من غيره، فجاء بـ(تَبْتِيلًا) على معناه مراعاة للفواصل^(٤).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾^(٥). قيل في معنى هذه الآية: إنَّ قوم نوح كَذَّبوه وقالوا إنَّه مجنون وازدجروه، أي أهانوه وشتموه وتوعَّدوه وزجروه عن تبليغ ما أرسل به بأنواع الزجر^(٦)، وقيل: (وَازْدُجِرَ) بالبناء للمفعول لأنَّه هو الذي يكون به تناسُّب الفواصل مع دلالة المقام على الفاعل المحذوف^(٧). ويلاحظ أنَّ القرآن لا ينظر إلى اللفظ قبل النظر في إتقان المعنى، ولكنَّه ينظر إلى كمال المعنى وجمال اللفظ في الوقت نفسه. وقد يقال: إنَّ هذا التقرير يعترضه ما جاءت عليه بعض الآيات، من مثل قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ، تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾^(٨).

(١) المدثر: ١٠ و ٩.

(٢) الفرقان: ٢٦.

(٣) المزمِّل: ٨.

(٤) انظر الزمخشري: الكشاف، ٦٣٩/٤.

(٥) القمر: ٩.

(٦) انظر الأنطلسي: البحر المحيط في التفسير، ٤٣٣/٤.

(٧) انظر الألوسي: روح المعاني، ٨١/١٤.

(٨) القمر: ١٣ و ١٤.

فإنَّ المراد -والله أعلم- الإخبار بأنَّ الله تعالى قد تفضَّل على نوح -عليه السلام- فحمّله على (سَفِينَةٍ) نَجَّاهُ بها من الغرق وأنقذه من الطوفان. ولكنَّ لفظ (سَفِينَةٍ) هو اللفظ الصريح والمعهود في اللغة للدلالة على هذا المسمّى وهذا المعنى، وقد ورد في قصّة نوح ذاتها في قوله تعالى:

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾^(١). ولفظة (الفلك) -

كذلك- لفظة صريحة وموضوعة في اللغة للدلالة على هذا المعنى، وجاءت في عدّة مواضع من

قصّة نوح، منها قوله تعالى: ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبِي فِي الَّذِينَ

ظَلَمُوا إِلَهُمْ مُعْرِقُونَ، وَيَصْنَعِ الْفُلَّكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأْ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ

قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾^(٢). وقوله سبحانه: ﴿فَأَوْحَيْنَا

إِلَيْهِ أَنْ أَصْنَعِ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَسْتَوَيْتِ أَنْتَ وَمَنْ

مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٤). ثمَّ إنَّ كلا

اللفظين: (السَفِينَةُ) و(الْفُلُّ) أوجز وأوضح في الدلالة من الوصف بعبارة مركّبة من ألفاظ

ثلاثة: (ذَاتِ الْوُحُوحِ وَدُسْرِ)^(٥).

وليس في العدول عن اللفظ الواحد إلى الألفاظ الثلاثة تغليبٌ للاعتبارات اللفظية على الاعتبارات المعنوية، وأنّه قُصِدَ بذلك مجرد تحقيق التناسب بين الفواصل، فالأمر ليس كذلك؛ لأنَّ القرآن لا يُغلبُ الناحية اللفظية على الناحية المعنوية، كما هو الحال في كلام فصحاء العرب أو سجع الكهان.

إنَّ اختيار التعبير بالوصف ذي اللفظين قد أُريدَ به لفت الانتباه إلى ناحية معنوية جديدة بأن يُلْتَفَتَ إليها، وهي امتنان الله تعالى على نوح -عليه السلام- وتفضُّله عليه بهدايته إلى صناعة

(١) العنكبوت: ١٥.

(٢) هود: ٣٧ و٣٨.

(٣) المؤمنون: ٢٧.

(٤) المؤمنون: ٢٨.

(٥) انظر تاج، عبد الرحمن: السجع وتناسب الفواصل وما يكون من ذلك في القرآن الكريم، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الجزء السادس والثلاثون، نوفمبر، ١٩٧٥، ص ٣٢ و٣٣.

سفينة من ألواح خشبية مربوطة بدُسُر، و(ذَاتِ الْأَلْوَا حِ وَالْدُسُرِ) هي السَّفِينَةُ الَّتِي أَنْشَأَهَا نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ. "وفهم من هذين الوصفين أَنَّهَا السَّفِينَةُ، فهي صفة تقوم مقام الموصوف وتنبو عنه، ونحوه: قميصي مسرودةٌ من حديد، أي درع، وهذا من فصيح الكلام وبديعه. ولو جمعت بين الصِّفَةِ والموصوف فيه لم يكن بالفصيح"^(١).

وقد أشار الفخر الرازي إلى ذلك في (التفسير الكبير)، فقال: "قوله سبحانه: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ، تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾، حذف الموصوف وهو (سَفِينَةٌ) وأقام الصفة مقامه وهي (ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ)، إشارة إلى أَنَّهَا كانت من ألواح مركبة موثقة بدُسُر، وكان انفكاكها في غاية السهولة ولم يقع، فهو بفضل الله، والقرينة الدالة على ذلك قوله: (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا) أي بمنظرٍ ومرأى منَّا وحفظٍ لها^(٢)، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَصْنَعَ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا﴾^(٣).

ومن هذا يتبين أَنَّ التعبير بـ(ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ) قد اقتضاه النظر إلى الدلالة الخاصة لهذا التعبير في الدرجة الأولى، ثم يأتي تناسب الفواصل مرادًا حتمًا، ومقصودًا قطعًا، بعد مراعاة ما يقتضيه المعنى^(٤).

وآية أخرى نستدلُّ بها على أَنَّ القرآن لا ينظر إلى اللفظ على حساب المعنى كما يفعل كثير من الخطباء والكتاب في سجعهم، وأَنَّهُ لا يستعمل لفظًا قريب الدلالة على ذلك المعنى من أجل الوصول إلى التناسب بين الفواصل، فالفواصل تتبع المعاني، ولا تكون مقصودة في نفسها، يقول الرَّمَانِي: "إذلك كانت الفواصل بلاغة والسجع عيبًا"^(٥). وهذه الآية هي قوله تعالى: ﴿فَمَنْ

(١) الأندلسي: البحر المحيط في التفسير، ٣٩/١٠.

(٢) انظر الرازي: التفسير الكبير، ٢٩٧/٢٩.

(٣) هود: ٣٧.

(٤) انظر تاج، عبد الرحمن: السجع وتناسب الفواصل، ص ٣٤.

(٥) السيوطي: معترك الأقران في إعجاز القرآن، ٢٥/١.

شَاءَ ذَكَرَهُ^(١). فقد ذهب الإمام الشوكاني إلى أنَّ الضمير المنصوب في هذه الآية راجع إلى (تَذَكُّرُهُ) في قوله تعالى: ﴿كَأَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾^(٢)؛ لأنَّ التذكُّرة في معنى الذِّكْر والوعظ. والذي سوَّغ عود الضمير المذكَر إلى ذلك المرجع المؤنَّث أن القرآن قد عدل عن الضمير المؤنَّث الذي مرجعه مؤنَّث إلى الضمير المذكَر؛ ليتحقَّق تناسُّب الفواصل في هذه الآيات: ﴿كَأَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ، فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ، فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ، رُّفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ، بِأَيْدِي سَفَرَةٍ، كِرَامٍ بَرَرَةٍ، قِيلَ الْإِنْسَنُ مَا أَكْفَرَهُ﴾. ولكنَّ هذا العدول لا يكون إلا في المؤنَّث غي الحقيقي، يقول الزجاج: "واعلم أن هذا إنَّما يجوز فيما يكون تأنيثه غير حقيقي، أما الذي يكون تأنيثه حقيقيًا، فلا يجوز"^(٣). وأجود من هذا التفسير أن يُقال: إنَّ الضمير في (ذَكَرَهُ) عائدٌ على القرآن، والقرآن مذكَر، إلا أنَّه لما جعل القرآن تذكُّرةً أخرجه على لفظ التذكُّرة، وهو إن لم يجر له ذكرٌ في هذا المقام، فهو معهودٌ معلومٌ على كلِّ حال^(٤). ويؤيِّد ذلك ما جاءت به الآيات التالية: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ، رُّفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ، بِأَيْدِي سَفَرَةٍ، كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾. فإنَّ المعهود أنَّ هذه أوصاف للقرآن الكريم.

ويمكن أن يُقال: إنَّ الضمير في (إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ) للسورة أو للآيات السابقة، والسور والآيات هي القرآن، فيكون الضمير في (ذَكَرَهُ) عائدًا على معنى (التذكُّرة) وهو (القرآن)^(٥). ويُفهم من هذا أنَّ وضع ضمير المذكَر موضع ضمير المؤنَّث لم يتحقَّق لمراعاة تناسُّب الفواصل فقط، بل لتناسب المعنى قبل كلِّ شيء.

(١) عيس: ١٢.

(٢) عيس: ١١.

(٣) الزجاج، أبو إسحق: معاني القرآن وإعرابه، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ٢/٣٠٩.

(٤) انظر القرطبي، شمس الدين: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م، ١٩/٢١٥.

(٥) انظر ابن قُتيبة: غريب القرآن، تحقيق: أحمد صقر، دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، ص ٥١٤. والفراء: معاني القرآن، ٢٣٦/٣.

وآية أخرى، هي قوله تعالى: ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴾^(١). وهنا يُقال: إنَّ الآية عدلت عن المقابل الأصلي القريب المختصر، وهو (أوعظت أم لم تعظ) إلى المقابل الطويل الوارد في الآية الكريمة، وهو (أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ) لا يظهر له غرض إلا مراعاة التناسب بين الفواصل بين سائر الآيات، يقول المولى -عزَّ وجلَّ- على لسان هود وهو يَعِظُ قومه ويَحذِّرهم سوء عاقبة كفرهم وعنادهم: (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا، وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ، أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمِ وَبَيْنَ، وَجَنَّتْ وَعُيُونٍ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)^(٢)، فقالوا له: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴾. إنَّ هذا المقابل المطوَّل الذي عدلت به الآية عن المقابل المختصر قد تحقَّق به تناسب الفواصل، ولكن هذا التناسب لم يتحقَّق بالعدول عن التركيب المختصر إلى المطوَّل بالنظر إلى اتِّحاد المعنى في التركيبين؛ فإنَّ المعنى ليس واحداً فيهما، وفي ذلك يقول الزمخشري: "ليس المعنى بواحد، وبينهما فرق؛ لأنَّ المراد سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ أم لم تكن أصلاً من أهله ومباشرته، فهو أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه من قولك: أم لم تعظ"^(٣).

وما قيل في تلك الآية من سورة (الشعراء) يُقال في نظائر لها، مثل قوله تعالى: ﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَذَّابِينَ ﴾^(٤). فقد عدلت الآية عن المقابل المختصر لقوله (أَصَدَقْتَ) وهو (أم كذبت) إلى المقابل المطوَّل: (أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَذَّابِينَ)، وهو يدلُّ على معنى أقوى وأبلغ، فإنَّ المراد -والله أعلم- بيان أنَّ الهدْءَ لا يجرؤ على الكذب على سُليمان -عليه

(١) الشعراء: ١٣٦.

(٢) الشعراء: ١٣١-١٣٥.

(٣) الزمخشري: الكشاف، ٣/٣٧٢.

(٤) النمل: ٢٧.

السلام- فيما يُخبره به عن مملكة سبأ، إلا إذا كان الكذب عادةً له وخُلُقًا متأصلًا فيه^(١). وفي ذلك يقول الزمخشري: "وأراد بقوله (أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ): أصدقت أم كذبت، إلا أن (كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) أبلغ؛ لأنه إذا كان معروفًا بالانخراط في سلك الكاذبين كان كاذبًا لا محالة، وإذا كان كاذبًا اتَّهم بالكذب فيما أخبر به، فلم يُوثق به"^(٢).

وهذا هو المعنى الذي يُفيده التركيب الذي جاءت به الآية: ﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾، ثُمَّ يَتَحَقَّقُ به بعد ذلك تناسُب الفواصل.

ومن الأمثلة القرآنية التي خُولفَ فيها الأصلُ القريب إلى تركيبٍ آخرٍ طويلٍ لمراعاة أمرٍ معنويٍّ أبلغ منه، ولم تكن هذه المخالفة مُجرّد تناسب فواصل كما يُظنُّ قوله تعالى: (إِنْ كُنَّا نُنْزِلُ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ)^(٣)، وقوله تعالى: (قَالَ إِذْ يُوسُفُ لَأُبَيِّهَ يَتَأْتِبِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)^(٤)، فقد عدلت الآيتان الكريمتان عن الظاهر المألوف، فأَسَنَدَ الخضوع للأعناق في الآية الأولى، وأَسَنَدَ السجود للكواكب في الآية الثانية، مع إثثار صيغة جمع السلامة للعلاء (خَاضِعِينَ) و(سَاجِدِينَ) بدل لفظتي (خَاضِعَة) و(سَاجِدَة)، وهو الأصل والظاهر؛ لأنه لَمَّا وصفها بالخضوع والسجود -وهما من صفات من يعقل- أجراها مجرى من يعقل؛ فلهذا جمعت جمع من يعقل^(٥).

(١) انظر الرازي: مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، ٥٥٣/٢٤.

(٢) الزمخشري: الكشاف، ٤٠٥/٣.

(٣) الشعراء: ٤.

(٤) يوسف: ٤.

(٥) انظر المبرد، أبو العباس: المقترض، تحقيق: محمد عبد الخالق عزيمة، عالم الكتب، بيروت، ٢٢٥/٢.

إنَّ الحكمة من ذلك أنَّ الأعناق لما وُصفت بالخضوع الذي هو خاصُّ بالعقلاء صحَّ لأنَّ يجري عليها من أجل ذلك أحكام العقلاء فُجِّعت جموعهم ووُصِّفت بما يُوصفون به، والمعنى أنَّها إذا ذلَّت رقابهم ذلَّوا، فالإخبار عن الرقاب إخبارٌ عن أصحابها، ويُسوغ في كلام العرب^(١).

والشيء نفسه يُقال في (سَجْدِينَ) في سورة (يوسف) ، فقد وُصِّفت الكواكب بوصف العقلاء، وهو كونها ساجدة ، فالعرب تجمع ما لا يعقل جمع من يعقل إذا أنزلوه منزلته . قال الواحدي: "إنَّه تعالى لَمَّا وصفها بالسجود صارت كأنَّها تعقل، فأخبر عنها كما يُخبر عمن يعقل"^(٢)، كما في قوله تعالى: (يَتَأْتِيهَا النَّمْلُ أَدْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ)^(٣).

وقد يعدل القرآن عن صيغة مفعول إلى صيغة فاعل، كما في قوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾^(٤)، فمعنى (دَافِقٍ) مدفوق، لموافقتها رؤوس الآيات التي هي منهنَّ أي توافق كلمتي (الترَّاب) و(لِقَادِر) في السورة نفسها^(٥).

فمن خصائص فواصل القرآن الكريم التي أعجزت البلغاء أنَّها نازلة في مواضعها، ملائمة لمواقعها، بريئة من التكلف، تتبع فيها الألفاظ المعاني، وتنهض خير نهوض بما تتطلبه هذه المعاني، فلا نقص ولا زيادة ولا تكرار. اقرأ قوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنِّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا، وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾^(٦)، تجد أن (كُبَّارًا) بمعنى كبير، ولكنَّها جاءت هنا للدلالة على هذا المعنى، ولتحقيق التناسب مع (خَسَارًا)، على حين أن كلمة كبير وردت في آية أخرى محققة للمعنى وللتناسب معاً في قوله

(١) انظر الشوكاني: فتح القدير، ١١٧/٤.

(٢) الرازي: التفسير الكبير، ٤١٨/١٨.

(٣) النمل: ١٨.

(٤) الطارق: ٦.

(٥) انظر الفراء: معاني القرآن، ٢٥٥/٣.

(٦) نوح: ٢١ و٢٢.

تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِن تَقْتُلُوهُمْ كَانَ خَطِئًا كَبِيرًا﴾^(١).

وكذلك جاءت كلمة (كَفَّار) صيغة مبالغة من الكفر في آية أخرى هي قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ النَّهَارَ، وَءَاتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾^(٢).

لتناسب فاصلة الألف والراء (النَّهَارَ، كَفَّارَ). وجاءت كلمة (كَفُور) صيغة مبالغة أخرى من الكفر في آية ثانية، هي قوله تعالى: ﴿وَلِئِن أَدْقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ تَرَعَنَّا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَعُوسٌ كَفُورٌ ، وَلِئِن أَدْقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَّسْتَةٍ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾^(٣)، لتناسب فاصلة الواو والراء في (فَخُورٌ)، وجاءت (فَخُورٌ) - كذلك - منسجمة مع (كَفُور) في المعنى؛ لأن من قنط وكفر، ثم فرح بحظ من الدنيا وعظم في نفسه، فإنه سيختال ويفتخر به ويتكبر على الناس^(٤).

وفي قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ، قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا، نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا، إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا، إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا، إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا، وَادْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ

(١) الإسراء: ٣٠ و٣١.

(٢) إبراهيم: ٣٣ و٣٤.

(٣) هود: ٩ و١٠.

(٤) انظر الزمخشري: الكشاف، ٤/٤٨٠.

وَتَبَيَّنَ إِلَيْهِ تَبَيُّلاً^(١)، عدل السياق القرآني عن (قَوْلًا) إلى (قِيلًا) اسم من القول بقلب الواو ياء، و"الْقِيل والقول واحد، أي: لا أحد أصدق قولاً من الله"^(٢)، إحراراً للتناسب مع فواصل آيات السورة المبنية على الياء واللام والألف^(٣).

سادساً: الانسجام الصوتي

هُوَ أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ سِلْسِلًا مُتَحَدِّراً كَتَحَدَّرَ الْمَاءُ الْمُنْسَجِمُ لسهولة وسهولته وعذوبة ألفاظه وعدم تكلفه؛ لِيَكُونَ لَهُ فِي الْقُلُوبِ مَوْقِعٌ وَفِي النُّفُوسِ تَأْثِيرٌ، من ذلك ما وقع في أثناء آيات التنزيل من تناسق صوتي بين فواصله^(٤). ولا تكاد آية دراسة لأسلوب القرآن الكريم تبلغ غايتها دون الإشارة إلى تناسب الفواصل (رؤوس الآيات)، وما تحقّقه من انسجام صوتي.

ولقد كانت لفئات الفراء في كتابه (معاني القرآن) تؤكد ضرورة اعتبار النسق الموسيقي للآيات عند التصدي لبحث لغة القرآن وأسلوبه. قال: "قال الله تبارك وتعالى: ﴿سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾"^(٥)، معناه: الأدبار"^(٦)، وكان القرآن نزل على ما يستحب من كلام العرب من موافقته المقاطع، ألا ترى أنه قال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَكُرٍ﴾"^(٧)، فثقل في (أَقْرَبَتْ) لأن آياتها مثقلة. وقال: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكَرًا﴾"^(٨)، "فاجتمع الفراء على تثقيل الأول وتخفيف هذا"^(٩). ومثله: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾"^(١٠). وقال في آية أخرى: ﴿جَزَاءً

(١) المزمّل: ١-٨.

(٢) الأندلسي: البحر المحيط في التفسير، ٧٤/٤.

(٣) انظر الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ٣٩٥/٢.

(٤) انظر الحنفي، أبو البقاء: الكليات، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص ١٩٦.

(٥) القمر: ٤٥.

(٦) الفراء: معاني القرآن، ١١٠/٢.

(٧) القمر: ٦.

(٨) الطلاق: ٨.

(٩) الفراء: معاني القرآن، ٢٢٤/٢.

(١٠) الرحمن: ٥.

مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا^(١)، فأجريت رؤوس الآيات على هذه المجاري، وهو أكثر من أن يضبط^(٢).

وللفواصل القرآنية ميزة التنوع، فقد تجيء متحدة الحرف الأخير، كقوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا، وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا، وَبَنِينَ شُهُودًا، وَمَهْدُتٌ لَهُ تَمْهِيدًا، ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ، كَلَّا إِنَّهُ^ط كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا، سَأَرْهِقُهُ^ط صَعُودًا﴾^(٣)، فجاءت فواصل الآيات (الواو والياء المدَّيتان) منسجمة ومتألّفة، لتُحقّق تناسقًا صوتيًا على امتداد الآيات.

وكثيرًا ما تجيء الفواصل مسبوقة وممدودة بحرف من حروف المدّ، فتستريح النفس عنده، ويجد النَّفْسُ الوقفة الملائمة، وتحسّ الأذن وقع الكلمات اللذيذ، مع روعة المعنى وبراعة الصورة وتميّز التعبير. فمن المسبوقة والممدودة بالألف قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا، حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا، وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا، وَكَأَسًا دِهَاقًا، لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدًّا، جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا، رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا، يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا، ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ^ط فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا، إِنَّا أَنذَرْنَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾^(٤).

(١) النبأ: ٣٦.

(٢) انظر الفراء: معاني القرآن، ٣٢٤/٢.

(٣) المذثر: ١١-١٧.

(٤) النبأ: ٣١-٤٠.

ومن المسبوقة بالياء والممدودة بالألف قوله تعالى: ﴿يَنَّايُهَا الْمَزْمِلُ، قُمْ أَلِيلَ إِلَّا قَلِيلًا، نَصَفَهُ أَوْ أَنْقَصَ مِنْهُ قَلِيلًا، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا، إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا، إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا، إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا، وَادْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا، رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا، وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾^(١).

ومن المسبوقة بالواو والممدودة بالألف قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا، وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ^ط فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا، وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾^(٣). على أنها قد تأتي في كثير من السور منتهية بالنون أو الميم، فيتحقق بالمدّ والنون أو بالمدّ والميم ترنيماً وإيقاعاً منعماً يضيف على الأسلوب جمالاً فوق جماله، كقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ، مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ، أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ، إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ، أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ

(١) المزمّل: ٨-١.

(٢) الفرقان: ٤-٣.

(٣) الفرقان: ٢٣-٢٢.

الْقِيَمَةِ^١ إِنَّ لَكُمْ لِمَا تَحْكُمُونَ، سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ، أَمْ هُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا
بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ، يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ، خَشَعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ^٢ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ
سَلِيمُونَ، فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ هَذَا الْحَدِيثَ^٣ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ،
وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ^(١).

وقد تتناوب حروف المدّ -مع تنوين الفتح- في تشكيل البنية الصوتية لفواصل الآيات. ففي
قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَنُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى
وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ^٤ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا، لَيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ^٥
وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا، يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ
جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا^٦ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا، إِذْ
جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ
الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا، هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا،
وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ^٧ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرُسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا،
وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَنْتَهِلْ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا^٨ وَيَسْتَعِذُّ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ
النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ^٩ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا^(٢)، منح التنوع

(١) القلم: ٣٥-٤٥.

(٢) الأحزاب: ٧-١٣.

الصوتيّ لحروف المدّ مع تنوين الفتح_ السياق القرآنيّ تنوّعاً في الإيقاع يعبر عن تنوّع المواقف والانفعالات وحالة الاضطراب والهلع التي انتابت المؤمنين في غزوة الأحزاب، لولا تثبيت الله لهم.

وقد تنتهي فواصل القرآن الكريم بحرف مدّ بعينه (الياء مثلاً)، مع اختلاف مخارج حروف الروي وصفاتها، ومع ذلك تتحقّق -عند الوقف عليها- بنية إيقاعيّة، ووحدة صوتيّة، نحو قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ، اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ، مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ۚ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ ۖ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١).

وقد تسهم فواصل القرآن الكريم في تشكيل الصورة الجمالية للآيات معنى ودلالة، فالناظر في فواصل القرآن الكريم يدرك أنها تلعب دوراً جمالياً في الربط بين آيات القرآن الكريم، وفي إضفاء روح الانسجام على السورة؛ ففي سورة مريم -مثلاً- تشعر أن للسورة إيقاعاً موسيقياً خاصاً، فحتى جرس ألفاظها وفواصلها فيه رخاء وفيه عمق^(٢)، قال تعالى: ﴿كَهَيَعَصْ،

ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا، إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا، قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا، وَإِنِّي خِفْتُ

(١) الشورى: ١٧-٢١.

(٢) انظر قطب، سيّد: في ظلال القرآن، ٤/٢٣٠٠.

الْمَوَالِي مِنْ وَرَائِي وَكَانَتْ أَمْرًا قَافِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا، يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ
 ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝^(١). أمّا المواضع التي تقتضي الشدة والعنف فتجيء فيها
 الفاصلة مشددة ومفتوحة (دالاً في الغالب)، مثل: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا، لَقَدْ جِئْتُمْ
 شَيْئًا إِدًّا، تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا، أَنْ
 دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا، وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا، إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ إِلَّا ءَاتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا، لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا، وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ
 الْقِيَمَةِ فَرْدًا، إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا،
 فَإِنَّمَا يَسْرِنُهُ بِلسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا، وَكَمْ أَهْلَكْنَا
 قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا ۝^(٢). "وتتنوع الإيقاع
 الموسيقي والفاصلة بتنوع السياق والموضوع يبدو جلياً في هذه السورة"^(٣).

وسورة الفتح تتنوع فواصلها بين النون والميم والراء والزاي واللام والباء والدال، وهي
 حروف تختلف مخارجها، قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا، لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا
 تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا،
 وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا، هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا
 إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا،

(١) مريم: ١-٦.

(٢) مريم: ٨٨ - ٩٨.

(٣) قطب، سيد: في ظلال القرآن، ٤/٢٣٠٠.

لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ^١ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا، الْمُتَنَفِّقِينَ وَيُعَذِّبُ وَالْمُتَنَفِّقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَرْبٌ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ^٢ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ^٣ وَسَاءَتْ مَصِيرًا^(١). فالنون -مثلاً- تخرج من الخيشوم، والباء والميم حرفان شفويان، والراء تخرج من طرف اللسان، وهي حرفٌ مكرّر، ولكن مجيء الفاصلة منصوبةً دائماً يُسهّم في تألف رؤوس الآيات وتوافقها في نظام واحد يُعوّض عن اختلاف الحروف في الفواصل، في حين نجد سورة محمد -مثلاً- تحتفظ بالفاصلة - وهي حرف الميم- في أولها وفي آخرها: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ، ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ^(٢)﴾؛ لأنها دائماً تأتي ساكنة، فلزم أن تحتفظ بحرف واحد ومخرج واحد، فنتج عن ذلك تألفٌ متمع بين فواصل السورة تحقّق به الانسجام الصوتي.

وقد عبّر مصطفى صادق الرافعي عن ظاهرة الانسجام الصوتي في القرآن الكريم بقوله: "وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن الكريم إلا صورة تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى، وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجيباً يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب، وتراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها، أو بالمدّ، وهو كذلك طبيعي في القرآن"^(٣).

(١) الفتح: ١-٦.

(٢) محمد: ١-٣.

(٣) الرافعي، مصطفى صادق: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٨، ٢٠٠٥، ص ١٥٠.

وقد تكون وحدة الوزن الصرفي للكلمات كفيلاً بتحقيق الإيقاع الصوتي والنغمي، رغم اختلاف الفواصل، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ، النَّجْمُ الثَّاقِبُ، إِنَّ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ، فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ، تَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ، إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ، يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ، فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾^(١)، حيث جاءت فواصل الآيات (الطَّارِقِ، الثَّاقِبِ، حَافِظٌ، دَافِقٍ...) متحدة الوزن الصرفي، على وزن (فاعل)، فأسهمت حروف المد المتكررة في الفواصل في تحقيق التآلف والانسجام الصوتي، والذي يُعزِّد هذا التفسير أنَّ الآيات أثرت وزن (دَافِقٍ) على وزن (مدفوقٍ)، ومعناها واحد، قال أبو جعفر النحاس: "وأهل الحجاز أفعل الناس لهذا يأتون بفاعل بمعنى مفعول إذا كان نعنا مثل: ماء دافق، وسرَّ كاتم أي مكتوم"^(٢). وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا، وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَحِبةً وَلَا وَلَدًا، وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا، وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾^(٣)، أسهم تنوين الفتح المتكرر في فواصل الآيات في توحيد النغمة الصوتية لهذه الفواصل رغم اختلافها، وتنوع صفاتها بين الجهر والشدة والرخاوة.

(١) الطارق: ١- ١٠.

(٢) النحاس، أبو جعفر، إعراب القرآن، وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢١هـ، ١٢٤/٥.

(٣) الجن: ١- ٦.

إنَّ ظاهرة الانسجام الصوتي ظاهرة عجيبة امتاز بها القرآن في رصف حروفه وترتيب كلماته، ذلك أنك إذا استمعت إلى حروف القرآن خارجة من مخارجها الصحيحة تشعر بلذة جديدة في رصف هذه الحروف بعضها بجانب بعض في الكلمات والآيات، ومن هنا يتجلى لك جمال لغة القرآن حين خرج إلى الناس في هذه المجموعة المختلفة المؤتلفة الجامعة بين اللين والشدة والخشونة والرقّة والجهر والخفية، على وجه دقيق محكم وضع كلاً من الحروف وصفاتها المتقابلة في موضعه بميزان، حتى تألّف من المجموع قالبٌ لفظي مذهش^(١).

الخاتمة

لقد بدا جلياً من خلال تتبّع ظاهرة تناسب الفواصل في القرآن الكريم أنَّ هذا الشكل من التعبير لا تفرضه طبيعة النسق القرآني فحسب -كما يُخيّل لبعضهم- بل إنَّ الفاصلة القرآنية تأتي لأداء وظيفتين أساسيتين في الوقت نفسه: إكمال معنى الآية أو الجملة القرآنية، ومتى انتظم المعنى حسن ذلك الكلام، وهذه هي الوظيفة الثانية للفاصلة.

وتتناسب الفواصل بهذا الشكل يختلف عن السجع المألوف في كلام البشر؛ لأنَّه -كما رأينا- يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدّي به السجع، وفرقٌ بين أن يأتي المعنى منتظماً دون اللفظ، وبين أن ينتظم الكلام في نفسه بالفاظه التي تؤدّي المعنى المقصود فيه.

ولكنَّ هذا لا يعني أنَّ الاحتفال بالمعنى في النسق القرآني يغفل الانسجام الصوتي، أو يُقلّل من أهميّته البيانية والفنية، والواقع أنَّ الوقع الإيقاعي الناتج عن ترتيب الفواصل القرآنية هو مطلبٌ في حدّ ذاته، يُضاف إلى الأغراض الأخرى الفنية والبيانية التي يُبرزها تناسب الفواصل.

ومهما يكن من أمر، فإنَّ السجع في أحسن أحواله وظيفة لفظية تأتي لتتناسق أو أواخر الكلمات في نثر الخطباء والكتّاب، فيكون هدفه في الدرجة الأولى إكمال السياق بالفاظ ذات وقع موسيقي، حتى ولو كان ذلك على حساب المعنى.

ومن عجيب أمر هذا النظام الصوتي البديع أنه كما كان دليل إعجاز من ناحية، كان سوراً منيعاً لحفظ القرآن من ناحية أخرى، وذلك أن من شأن النظام الصوتي أن يسترعي الأسماع ويثير الانتباه ويحرك داعية الإقبال في كل إنسان إلى هذا القرآن الكريم، وبذلك يبقى أبد الدهر سائداً على ألسنة الخلق وفي أذانهم ويعرف بذاته ومزاياه بينهم فلا يجرؤ أحد على تغييره وتبديله.

أما عن أهمّ النتائج التي توصّل إليها البحث، فهي على النحو التالي:

- تؤدّي الفاصلة القرآنية وظيفة لفظية معنوية في وقت واحد. إنَّها مهمّة فنية مميزة، فلا تفريط بالالفاظ لحساب المعاني، ولا إفراط في المعاني على حساب الالفاظ، إنَّها علاقة

(١) انظر الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط٣، ٢١٦-٢١٣/٢.

متكاملة شكلاً ومضموناً، لذلك كانت الفاصلة القرآنية أسمى وأرقى بلاغةً ودلالةً من السجع، وإن توافقاً صوتياً.

- للفواصل القرآنية أهمية كبيرة في إظهار بدائع المعاني القرآنية الكامنة في ربط مضمون الآيات بفواصله، وتعدّ وسيلةً لتدبير أي القرآن الكريم عن طريق معرفة العلاقات بين الآيات وفواصلها. وربما ساهم الربط بين مضمون الآيات الكريمة وفواصلها في تيسير حفظ الآيات القرآنية وتفسيرها.
- هناك توافقٌ بديع بين التركيب النحوي للجملة القرآنية وقيمتها البلاغية؛ حيث تؤثر فواصل القرآن الكريم في كثير من المواضع نمطاً لغوياً على آخر، كالتقديم والتأخير، أو الحذف، أو الزيادة، أو التكرار، وذلك استجابةً للقيم الجمالية، وتحقيقاً للانسجام للصوتي.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- ابن الأثير، ضياء الدين. (١٤٢٠هـ). المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. المكتبة العصرية. بيروت.
- الإسكافي، الخطيب. (١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م). درة التنزيل وغرة التأويل. ط١. تحقيق: محمد مصطفى أيدين. جامعة أم القرى. مكة المكرمة.
- الألوسي، شهاب الدين. (١٤١٥هـ). روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. ط١. تحقيق: علي عبد الباري عطية. دار الكتب العلمية. بيروت.
- الأندلسي، أبو حيان. (١٤٢٠هـ). البحر المحيط في التفسير. ط١. تحقيق: صدقي محمد جميل. دار الفكر. بيروت.
- الأنصاري، ابن زكريا. (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م). فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن. ط١. تحقيق: محمد علي الصابوني. دار القرآن الكريم. بيروت.
- الباقلائي، أبو بكر. (١٩٩٤). إعجاز القرآن. تحقيق: أبو بكر عبد الرازق. مكتبة مصر.
- الباقولي، أبو الحسن. (١٤٢٠هـ). إعراب القرآن المنسوب للزجاج. ط٤. تحقيق: إبراهيم الإياري. دار الكتاب المصري.
- البغدادي، أبو بكر. (١٤٠٠هـ). السبعة في القراءات. تحقيق: ط٢. شوقي ضيف. دار المعارف بمصر.
- تاج، عبد الرحمن. (١٩٧٥). السجع وتناسب الفواصل وما يكون من ذلك في القرآن الكريم. مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة. الجزء السادس والثلاثون.

- الثعلبيّ، أبو إسحق. (١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م). الكشف والبيان عن تفسير القرآن. ط١. تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور. دار إحياء التراث العربي. بيروت.
- ابن جنّي، أبو الفتح. (١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م). المنصف. ط١. دار إحياء التراث القديم. القاهرة.
- حسان، تمام. (٢٠٠٠). البيان في روائع القرآن. ط٢. عالم الكتب. القاهرة.
- الحنفيّ، أبو البقاء. (د.ت). الكليات. تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري. مؤسسة الرسالة. بيروت.
- الحوفيّ، أحمد. (١٩٧٢). سجع القرآن فريد. مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة. الجزء التاسع والعشرون.
- الخفاجي، ابن سنان. (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م). سر الفصاحة. ط١. دار الكتب العلمية. بيروت.
- الدانيّ، أبو عمرو. (١٤١٤هـ - ١٩٩٤م). البيان في عدّ أي القرآن. تحقيق: غانم قدوري الحمد. مركز المخطوطات والتراث. الكويت.
- الرازيّ، فخر الدين. (١٤٢٠هـ). التفسير الكبير. ط٣. دار إحياء التراث العربيّ. بيروت.
- الرافعيّ، مصطفى صادق. (٢٠٠٥). إعجاز القرآن والبلاغة النبويّة. ط٨. دار الكتاب العربيّ. بيروت.
- الزجاج، أبو إسحق. (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م). معاني القرآن وإعرابه. عالم الكتب. بيروت.
- أبو زرعة، عبد الرحمن. (د.ت). حجّة القراءات. تحقيق: سعيد الأفغاني. دار الرسالة.
- الزرقانيّ، محمد عبد العظيم. (د.ت). مناهل العرفان في علوم القرآن. ط٣. مطبعة عيسى البابي الحلبيّ. القاهرة.
- الزركشيّ، بدر الدين. (١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م). البرهان في علوم القرآن. ط١. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار إحياء الكتب العربية.
- الزمخشريّ، جار الله. (١٤٠٧هـ). الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل. ط٣. دار الكتاب العربيّ. بيروت.
- السعران، محمود. (١٩٩٧). علم اللغة مقدمة للقارئ العربيّ. ط٢. دار الفكر العربي. القاهرة.
- سلام، محمد زغلول. (١٩٦٨). أثر القرآن في تطوّر النقد العربيّ. ط٣. دار المعارف بمصر.

- سلام، محمد زغلول. (١٩٧١). لغة الشعر وكتاب "ما يجوز للشاعر في الضرورة". مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة. (٢٧).
- السيوطي، جلال الدين. (١٩٧٤). الإتقان في علوم القرآن. ط١. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة.
- السيوطي، جلال الدين. (١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م). معترك الأقران في إعجاز القرآن. ط١. دار الكتب العلمية. بيروت.
- سيبويه. (١٩٨٨). الكتاب. ط٣. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. مكتبة الخانجي. القاهرة.
- الشوكاني، محمد بن علي. (١٩٩٧). فتح القدير. ط١. المكتبة العصرية. بيروت.
- الفراهيدي، الخليل بن أحمد. (د.ت). العين. تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي. دار الهلال. القاهرة.
- الفراء، أبو زكريا. (٢٠٠١). معاني القرآن. ط١. تحقيق: محمد علي النجار وآخرون. الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله. (١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م). غريب القرآن. تحقيق: أحمد صقر. دار الكتب العلمية. بيروت.
- القرطبي، شمس الدين. (١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م). الجامع لأحكام القرآن. ط٢. تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. دار الكتب المصرية. القاهرة.
- القزويني، الخطيب. (١٩٩٨). الإيضاح في علوم البلاغة. تحقيق: الشيخ بهيج غزاوي. دار إحياء العلوم. بيروت.
- قطب، سيد. (١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م). في ظلال القرآن. ط١٧. دار الشروق. بيروت. القاهرة.
- قطب، سيد. (١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م). التصوير الفني في القرآن. الطبعة الشرعية ١٦. دار الشروق. القاهرة.
- الكرمانلي، برهان الدين. (د.ت). أسرار التكرار في القرآن. تحقيق: عبد القادر أحمد عطا. دار الفضيلة للنشر. الرياض.
- النحاس، أبو جعفر. (١٤٠٩ هـ). معاني القرآن. ط١. تحقيق: محمد علي الصابوني. جامعة أم القرى. مكة المكرمة.
- النحاس، أبو جعفر. (١٤٢١ هـ). إعراب القرآن. ط١. وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم. دار الكتب العلمية. بيروت.